لحظات مع الشيخ البونى . . .

. . . حدث ذلك منذ زمن بعيد حين كنت أبحث فى مكتبتى .. ولمحت بين الكتب كتاباً ضخماً ألهتنى ضخامته عن لون ورقه الأصفر القديم ، فأخذته لهفاً لأطلع أى كنز زاخر من العلوم يجمعه بين دفتيه ، وفتحته ، وقرأت عنوانه فإذا هو « شمس المعارف الكبرى » . . وملأ صدرى شعورٌ دافق من البهجة والسرور ؛ إذ قد وفقت إلى لقاء كتاب يجمع « المعارف الكبرى » . . وما أحوجنا إليها . . . ونسيت فى غمرة البهجة أن تلك الحروف الصغيرة على ذلك الورق الأصفر تؤذى العين أكثر مما تفيد الفكر ، ولكن حب الاطلاع دفعنى بكل ما أملك من شعور إلى التفرغ لقراءة هذا الكتاب . . . وحدثت نفسى وأنا أفتحه أن لا بد أن أقرأ الفهرس حتى أقف على ما أنا مزمع قراءته من موضوعات العلوم والمعارف الكبرى . وفتحت الفهرس بيد ترتجف ، فراعنى أنى وجدت الكتاب مكوناً من أربعة أجزاء مما زاد فى تشوقى إليه وتقديرى له ... وغرقت فاهى فى دهشة وأنا أقرأ فى سطور الفهرس ، فلم تكن سوى فوائد وفصول فوائد لكل شىء يمكن أن يكون مقصداً فى الحياة . . .

وما أتممت قراءة الفهرس — وكان ثمانى صفحات — حتى شعرت بشبه جنون من الفرح ، وأدركت أننى نلت كل مقصد فى هذه الدنيا ، ثم شعرت أننى أقف وأننى أدور فى غرفتى على غير هدى ، وأن شيئاً ما فى هذه الحياة صار لا يسترعى انتباهى ولا يستحق تفكيرى؛ لأنى صرت مالكاً لكل شىء قادراً على كل شىء . . .

ودخلت إحداهن تكلمنى فلا أسمع ولا أرد ، وتداعبنى فلا أحس ، فدهشتْ وأحسبُ أن الرهبة قد استحوذت على نفسها فتركتنى . . فسئلت : أليس موجوداً فى الغرفة ؟ قالت : ليس موجوداً ، فقيل لها : ومَنْ بها إذن . . ؟ قالت : اسحق نيوتن . . لابل . . ديوجنس الكلبى . .

ورجعت إلى الكتاب ، ورأيت أن أقرأ اسم مؤلفه العظيم ، فإذا به يطالعنى ، وإذا به « الشيخ أحمد بن على البونى — قدس روحه — المتوفى سنة ٦٢٢ هـ » . . . على أنى كنت أول من لايصدق الدجل والاحتيال ، بيد أنى آليت أن أدرس قليلا حتى أستوثق من صحة كل شىء دون أخذه على علاته من غير بحث أو نظر .

وأخذ الطرب يهزنى كلما قرأت فى الفهرس فائدة من تلك الفوائد التى يضمها الكتاب بين أرجائه ، وكنت أنتفض وأقف قليلاً عند أمثال هذه الكلمات : (فائدة لنيل جميع المقاصد — فائدة لمن يطلب ولاية ينالها — لمن أضرّ به العشق — لمن يريد أن يطلع على أحوال الناس — فائدة إذا أردت أن يختفى ظلك وأنت واقف فى الشمس — فائدة من عملها وأشار إلى الحامل ألقت ما فى بطنها والمركب تنقلب والفارس ينقلب والسهم يرجع إلى صاحبه — فائدة إذا أردت أن تصيّر البحر براً وعكسه — فائدة لخلاص المسجون يطير به الخادم ولو لم يكن للسجن باب — فائدة لعقد الألسنة — لفتح الأقفال — لإحضار الخادم يعلمك الكيمياء .)

ووقعت عينى على (فائدة لقلب الماء دراهم أميرية وزيتا) فصحت فرحاً ، وأغلقت باب الغرفة ، وجلست لأقرأ كيف تحدث هذه الفائدة ، فوجدت الشيخ البونى يسهل الموضوع ويجعل حدوث هذه الفائدة مقتصراً على احضار « كوز نحاس » وملؤه ماء وكتابة بعض كلمات ذكرها عليه وذكر بعض آخر من الكلمات نطقاً ...

ونفذ حينذاك إلى عقلى شعاع من شمس المعارف ، فوسوست إلىّ نفسى أن أحاول وأجرب ، ثم سرح خيالى ، فتخيلت نفسى حين أقلب الماء إلى دراهم ودنانير ملكاً على عرش المال والثروة ، ثم تخيلت نفسى حين أقلب الماء إلى زيت « وزير تموين » ، بل سولت إلىّ نفسى أن أفتح بمفردى « وزارة تموين » لأنه — على ما أذكر — لم يكن هناك وزارة تموين . . .

وخرجت من غرفتي وأتيت (بالكوز النحاس) وبدأت أفعل ما ذكره الشيخ البوني بتدقيق تام . . ولكن مضت ساعات ولم أصل إلى النتيجة التي كان من المنتظر أن أصل إليها ، فما زال الماء ماء ، وما حصلت على الزيت ولا على الدنانير . . . وانتفضت ورجعت إلى نفسي ، ثم ضحكت ثم قهقهت حتى كاد نفسي أن ينقطع ، وكنت في تلك اللحظة في حالة غريبة ، وكأني أحد كبار علماء التنجيم . . فقد تشعث شعري ، وانقلبت ياقة قميصي، وتخللت شاربي قطرات العرق أشبه بماء الري تسقي أعواد القمح والشعير ، وبرقت عيناي حتى صارتا في اتساع عين البقر ، وجفت شفتاي وضاع منهما البريق ، واحمرت أذناي كأني خارج من مدفأة صهرتني فيها زوجة عنود . . وكان كل من حولي يعتقد أن قد مسني طائف من الجنون ، حتى فزعت إليهم وقصصت عليهم نبأ الشيخ البوني العجيب ، فاقتنعوا وعلموا أني في كل ما صنعته لم أكن مخبولاً ولا مجنوناً . ثم أخذوا يضحكون .

وتذكرت بذكر قلب الماء إلى دراهم ودنانير ما يفعله الدجالون في الأحياء الشعبية . . وكنت ذات مرة سائراً في أحد هذه الأحياء ، ورأيت مزدحماً من الناس ينصتون إلى خطيب بيده كوب به ماء . . فوقفت بدافع الفضول ، فسمعت الخطيب يقول : ترون حضراتكم أن بيدي اليمنى كوباً به ماء ، وفي اليد اليسرى ورقة قيمتها عشرة قروش ، أليس كذلك ؟ قال الجمع : بلى . . قال : وسأضع الورقة في كوب الماء ، ثم هكذا أخرج المنديل من جيبي ليس به شيء ، ثم أغطي به الكوب ، فما عساكم تظنون ؟ قال الناس : لن يحدث شيء . قال : فإذا رفعت المنديل وأخرجت لكم العشرة القروش ورقةً من ذات الخمسة جنيهات . . ؟ ! فأخذت أصوات تقول : نريد أن نرى . وعجبتُ من هذا الخطيب المصقع ؛ فثمة صوت جهوري ، ونبرات قوية ، وألفاظ خلابة ، ولف ودوران مغر ، وأمثلة وبراهين ، وساب للعقول ، واجتذاب لأكثر فئة ممكنة من المارين في الطريق .. ثم راعني أني رأيت الخطيب يتحول — وما زال الكوب مُسجى في يده — بلباقة نادرة إلى الحديث عن الأسنان وعن « البرشام » . والجمع ساكن ذاهل قد أسكره الأسلوب البديع ، فصحت وقلت له : يا رجل: لقد أنسيتنا الخمسة جنيهات .. قال بنفس اللباقة : كدت أن أنساها أنا أيضاً ، ولكني سأفعل بعد قليل .. قلت : لو كان في مقدورك أن تقلب العشرة القروش إلى خمسة جنيهات ، فلماذا أتيت تجهد نفسك في الصراخ والالقاء تحت أشعة الشمس المحرقة ، إنك تستطيع أن تجلس في بيتك وتصير مليونيراً بعملية قلب القروش إلى جنيهات . . وضاعت لباقة الرجل وخارت قواه ، وأراد أن يجمع الشمل من جديد ، ولكنه ألفى الناس قد انفضوا من حوله وانتشروا وهم يهزأون وكأنما صحوا من غفوة .. وأسرّ أحدهم في أذني : لقد قطعت رزق الرجل . . قلت : لم أفعل . . إنه مليونير . . قال : ولكني أظن أن مهمته (خلع الاسنان واعطاء البرشام) . قلت : لا عليك . . إن الشيخ البوني ذكر في كتابه أيضاً فائدة (لوجع الضرس) .

وكلما تذكرت ما ذكر في كتاب الشيخ البوني كلما رثيت لهؤلاء المرشحين الذين يخوضون غمار الانتخابات ، فيصرفون الأموال وينشرون الاعلانات ويقيمون السرادقات ويؤيدون الأحزاب ، وما من حاجة إلى كل ذلك ، فعليهم فقط بكتاب (الشيخ البوني) وبخطباء (البرشام والأسنان) .

وأخيراً أود أن أقول إن كتاب الشيخ البوني كتاب من الطرافة بمكان .. إنه حلم يقظة .. إنه مسرح خيال . . وإن طرافته لتدعو إلى تسطير كثير من الملاحظات ، وأرجو أن تكون هذه الأخيرة . . في مقالات . . !

احمد طه السنوسي

الكويت تفقد شاعراً

(بقية المنشور على صفحة ٣)

فعادت إلينا البرقيات باكيةً مؤبنةً الشاعر الذي دوّى صوتُه في أنحاء العالم العربي ، ورددت صدى قصائده الأقطار ؛ الشاعر الذي أهمله أصحابه ؛ وأنكره قومه ، ونساه أو تناساه بنو وطنه ، ولم يكترثوا لهذه الكارثة التي حلت بالشعر في الكويت .

فهل يا تُرى أنساهم بريق الذهب المادي أنغام القصيد الخالد ؟ أم أن ضجيج السيارات أصمهم عن سماع الأغاني الروحية العالية ؟ ؟ أم أنهم حسبوا قول الشاعر، هو الحقيقة الواقعة ، فآمنوا بها وصدقوها : —

خُلق الشاعر والبؤس معاً فهما خلان لن يفترقا

رحمك الله رحمة واسعة أيها الفقيد ، وألهم ذويك الصبر والسلوان ، وعوض الشعر والوطن بفقدك خيرا .

عبد الله زكريا